١

الكلام فى ماهية الحب

الحب أعزّك الله – أوّله هزل وآخره جد . دَقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة ، وليس بمنكَر فى الديانة ، ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ؛ منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفُه بطروب أم عبد الله ابنه أشهرُ من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه ، وعن جميعهم ، وامتناعه عن التعرّض للولد من غيرها[1] ، ومثل هذا كثير . ولولا أنّ حقوقهم على المسلمين واجبة – وإنّما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين ، وإنّما هو شىء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم فلا ينبغى الإخبار به عنهم – لأوردتُ من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل .

وأمّا كِبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يُحصَوْا ، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفّر ، عبد الملك بن أبى عامر بواجد ، بنت رجل

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفائه :

- عبد الرحمن الداخل ، وحكم من ٧٥٥ إلى ٧٨٨ م ، وكان مغرماً بجارية تسمى دعجاء .
- الحكم بن هشام ، وحكم من ٧٩٦ إلى ٨٢١ م .
- عبد الرحمن بن الحَكَم ، ويعرف بعبد الرحمن الأوسط ، وحكم من ٨٢١ إلى ٨٥٢ م ، وشهر بحب جاريته طروب ، ولعبت دوراً هاماً فى الحياة السياسية على أيامه . وإليها ينسب مسجد بصدر الربض الغربى ، وقد أفرد لها ابن الأبار ترجمة كاملة فى كتابه التكملة .
- محمد بن عبد الرحمن ، وحكم من ٨٥٢ إلى ٨٨٦ م ، وكان يحب جارية تدعى غزلان .
- الحكم المستنصر ، وحكم من ٩٦١ إلى ٩٧٦ م ، وأحب جارية من منطقة الباسك (البشكنس فى المصادر العربية القديمة) ، شمال شرق إسبانيا ، تدعى صبح ، وهو الترجمة العربية لاسمها الأصلى Aurora ، وتمتعت بنفوذ قوى فى الحياة العامة ، وربطتها بالمنصور بن أبى عامر ، وهو موظف فى القصر ، صلة عاطفية عنيفة ، فيما يرجح ، وكانت وراء ما بلغه من جاه وسلطان ، وهى أم الخليفة هشام المؤيد بالله .
- هشام المؤيد بالله ، وتولى الحكم مرتين من ٨٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ م .

من الجنائن حتى حملهُ حبّها أن يتزوّجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين الوزيرُ عبدالله بن مسلمة . ثم تزوّجها بعد قَتْله رجلٌ من رؤساء البربر(٢) .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني : أنّ نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار ، الذي ولي الملك بعده وادّعى الإلاهية ، إلا بعد مدّة من مولده ، مساعدة لجارية كان يُحبها حباً شديدا ، ولم يكن له ذكر ، ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه(٣).

ومن الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية ، والأزمان القديمة، من قد استُغْني بأشعارهم عن ذكرهم : وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود

---

(٢) هذه الفقرة جاءت مضطربة تماماً في المخطوط وفي كل الطبعات العربية ، فقد وردت على النحو التالي : « . . . من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد ، بنت رجل من الجائنين ، حتى حمله حبها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة . . . » . وقد صححها ليفي بروفنسال على النحو الذي أوردناه . وكان الحق معه ، فكلمة « المظفر » لقب لعبد الملك بن أبي عامر وليست اسماً لابن له ، وكانت حبيبته بنتاً لجنّان ، أي بستاني ، وليس لجباه ، والذي خلف عليها هو الوزير عبد الله بن مسلمة بعد فناء دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده ، فليس للوزير عبد الله ولد اسمه عامر ، واسم الجارية واجد وليس « واحد » .

والمظفر خلف أباه المنصور ، بعد موته ، وكان مثله حاجبا بالاسم ، وحاكما بالفعل ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م . انظر :

- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، جـ ٣ ص ٣ وما بعدها طبعة ليفي بروفنسال .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤٠٠ .
- عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠ ، تحقيق محمد سعيد العريان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨ – ١٩٤٩ م .

والوزير عبد الله بن مسلمة كان متقلد مدينة الزاهرة في قرطبة ، أيام حجابة عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر ، الملقب بشنجول ، وقد وليها بعد وفاة أخيه المظفر عام ١٠٠٨ م ، وكان مجردا من المواهب فاغتيل في قرطبة بعد شهور من توليه الحجابة ، في ٤ مارس ١٠٠٩ ، وقد شارك عبد الله بن مسلمة بخط وافر في أحداث هذه الفترة . انظر :

- ابن عذارى : المغرب ، جـ ٣ ص ٣٨ وما بعدها .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، طبعة القاهرة ، جـ ١ ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) نزار بن معد ، خليفة مصر الفاطمي ، الملقب بالعزيز ، وحكم من ٩٧٦ إلى ٩٩٦ م ، وأما المنصور ابنه ، فهو ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله ، وحكم من ٩٩٦ إلى ١٠٢١ ، انظر :

- بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الرابعة ، ص ٢٥٤ وما بعدها .
- علي إبراهيم حسن : مصر في العصور الوسطى ، ط الثانية ، ص ١٠٦ وما بعدها ، القاهرة ١٩٤٩ .

وشعره ما فيه الكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة[٤] ، وقد جاء من فتيا ابن عبَّاس رضى الله عنه مالا يُحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عَقل ولا قود .

وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكرٌ مقسومة لكنْ على سبيل مناسبة قواها فى مقرِّ عالمها العلوى ، ومجاورتها فى هيئة تركيبها[٥] .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمثْل إلى مِثْله ساكن ، وللمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد ، والموافقة فى الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا ، فكيف بالنفس وعالمُها العالم الصافى الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسِنْخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار . كل ذلك معلوم بالفطرة فى أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : « هُو الذى خَلَقكم مِن نَفْسٍ وَاحدةوجَعَل منها زوجَها ليَسكُن إليها »[٦] فجعل علة السكون أنّها منه .

ولو كان علّةُ الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألاّ يُستحسن الأنقصُ من الصورة ، ونحن نجد كثيرا ممن يُؤثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ، ولا يجد محيدا لقلبه عنه . ولو كان للموافقة فى الأخلاق لَمَا أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه . فعلمنا أنه شىء فى

(٤) فقهاء المدينة السبعة : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله ابن عتبة بن مسعود الوارد فى النص . انظر :

• ابن رشيق القيروانى : العمدة فى صناعة الشعر ونقده ، الطبعة الأولى ، ص ١٨ ، القاهرة ١٣٤٤ — ١٩٢٥ م .

(٥) أبو بكر محمد بن داود الظاهرى ، ابن مؤسس المذهب الظاهرى ، ولد عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م ، وتوفى ٢٩٧ هـ = ٩١٠ م ، ألف كتاب « الزهرة » ، وقد نشر لويس نيكل وإبراهيم طوقان نصفه عن مخطوطة وحيدة فى دار الكتب المصرية ، عام ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، والفقرة الوازدة هنا اقتبسها ابن حزم من كتاب الزهرة ص ١٥ ، ونصها هناك :

« وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدوّرة الشكل ، على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً ، فجعل فى كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم » .

(٦) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .

ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها . فمنْ ودَّك لأمر وَلَّى مع انقضائه .

وفى ذلك أقول :

ودادى لكَ الباقى على حَسْب كوْنـــه ... تناهَى فلم يَنْقُص بشىءٍ ولم يَـــزِدْ
وليستْ لـــــه غير الإرادة علّـــــةٌ ... ولا سَبَبٌ حاشاهُ يعلمه أحَد
إذا ما وجدْنـــا الشىءَ علَّـــة نفسِهِ ... فذاك وجُودٌ ليس يفنى على الأبد
وإمّا وجدنـــاه لشىءٍ خلافَـــــهُ ... فإعدامُـــه فى عدمـــا ماله وجدْ

ومّما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب : فأفضلها محبة المتحابّين فى الله عز وجل ، إمّا لاجتهاد فى العمل ، وإمّا لاتفاق فى أصل النِّحلة والمذهب ، وإمّا لفضل عِلْم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللَّذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس .

وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، زائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها ، حاشى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس ، فهى التى لا فناء لها إلا بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه ، وذا السِّن المتناهية ، إذا ذكّرته تذكر وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب ، واهتاج لـــه الحنين ، ولا يعرض فى شىء من هذه الأجناس المذكورة ، من شغل البال والخبل والوسواس ، وتبدّل الغرائز المركبة ، واستحالة السجايا المطبوعة ، والنُّحول والزفير ، وسائر دلائل الشجا مايعرض فى العشق ، فصح بذلك أنه استحسان رُوحانى وامتزاج نَفسانى .

فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية ، إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال وحظهما واحد . فالجواب عن ذلك أنْ نقول : هذه لعمرى معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذى لا يحبُّ مَنْ يحُبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض السـاترة ، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تحس بالجزء الذى كان متصلا بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس

المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها ، كالمغنطيس والحديد ، فقوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكّمها ، ولا من تصفيتها ، أنْ تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أنّ قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس ، تطلب ما يشبهها ، وتنقطع إليه ، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة ، وبالاختيار والتعمّد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب ، إذ لم يبلغ من قوته أيضا مغالبة المُمسك له ممّا هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض ، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظم جرم المغناطيس ، ووازت قواه جميع قوى جرم الحديد ، عادت إلى طبعها المعهود .

وكالنار فى الحجر . لا تبرز على قوة النار فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلاّ بعد القدح ، ومجاورة الجرمين بضغطهما واصطكاكهما ، وإلا فهى كامنة فى حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لاتجد اثنين يتحابّان إلاّ وبينهما مشاكلة ، واتفاق الصفات الطبيعية ، لابد من هذا وإن قلّ ، وكلّما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكّدت المودة ، فانظر هذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : «الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعارفَ منها ائتلف ، وما تناكرَ منها اختلف » ، وقول مروىّ عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما اغتم إبقراط حين وُصِفَ له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه(٧)

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولّى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمرى مالى

(٧) إبقراط Hippocrate (٤٦٠ – ٣٧٧ ق م) ، طبيب إغريقى ، من أشهر أطباء العصر القديم ، ويدعى أبا الطب ، ولم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى إبقراط .

إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ما هو . فأدّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها . فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميّزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلاّ أنْ حرّكت هذه الموافقة ، وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسى ، فأمر باطلاقى وقال لوزيره : قد انحل كل ماأجد فى نفسى له[٨].

وأما العلّة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تشتت فيه ، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة . وإن للصور لتوصيلا عجيباً بين أجزاء النفوس النائية[٩].

وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رَعْيه غنما لابن خاله ، مهراً لابنته شارطه على المشاركة فى إنسالها ، فكل بهم ليعقوب . وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى ترده الغنم ، ويتعمّد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد ، إلا نصفين ، نصفاً بهيماً ونصفاً غُرّا[١٠].

وذُكر عن بعض القافة انه أُتى بابن أسود لأبيضيْن ، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك ، فرغب أن يُوقَف على الموضع الذى اجتمعا عليه ، فأُدخل البيتَ الذى كان فيه مَضْجعهما ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورةَ أسود فى الحائط فقـال لأبيه : من قِبل هذه الصورة أُتيتَ فى ابنك .

وكثيراً ما يصرف شعراء « أهل الكلام » هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون

---

(٨) أيضاً لم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى أفلاطون .

(٩) تتردد هذه الفكرة كثيراً فى الشعر الإيطالى ، على امتداد القرن الثالث عشر الميلادى ، وأثارت انتباه النقاد لكن أحداً لم يدرسها فى إطار مقارن مع فكرة ابن حزم . انظر :

* Nardi B. : Dante e la cultura medievale, p. 4 ss., Bari 1942.

(١٠) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الثلاثون ، والقصة فى التوراة طويلة ذات تفاصيل ، ولكنها تتفق فى خطوطها الرئيسية مع ما أورده ابن حزم .

المرئيّ فى الظاهر خطاب المعقول الباطن ، وهو المستفيض فى شعر النّظام إبراهيم ابن سيار[١١] وغيره من المتكلمين .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علّةُ النّصرِ فى الأعداء تعرفهـا ... وعلّةُ الفر منهم إنْ يَفرُّونـا
إلّا نِزاعُ نفوسِ الناسِ قاطبـةً ... إليك يالؤلؤاً فى الناس مكنونـا
من كنتَ قُدامـه لا ينثنى أبداً ... فهم إلى نورك الصعّاد يَعشونا
ومن تكن خلْفَه فالنفسُ تَصرفُـهُ ... إليك طوعاً فهم دأباً يكُرُّونـا

ومن ذلك أقول :

أمِن عالم الأملاك أنت أمِ انْسىُّ ... أَبِنْ لى فقد أزْرَى بتمييزىَ العىُّ
أرى هيئةً إنسيّةً غير أنّـه ... إذا أعمل التفكيرُ فالجِرْم عُلوىّ
تبارك مَن سوَّى مذاهب خلْقـه ... على أنك النورُ الأنيقُ الطبيعىّ
ولا شكَّ عندى أنّك الروحُ ساقه ... إلينا مثالٌ فى النفوس اتّصالىّ
عدمنا دليلاً فى حُدوثك شاهـداً ... نَقيس عليـه غيرَ أنّك مَرْئىّ
ولولا وقوعُ العين فى الكون لم نقل ... سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

وكان بعض أصحابنا يُسمّى قصيدة لى « الإدراك المتوهم » منها :

تـرى كلَّ ضـدٍّ بـه قائمـاً ... فكيف تحُدُّ اختلاف المعانى
فيأيُّها الجسمُ لا ذا جهـاتٍ ... ويا عَرَضاً ثابتاً غيرَ فـانْ
نَقَضْتَ علينـا وجُـوهَ الكلامِ ... فما هو مُذ لُحتَ بالمستبان

وهذا بعينه موجود فى البغضة . ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى . ولا علة ويستثقل بعضهما بعضا بلا سبب .

والحب – أعزّك الله – داء عياء . وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ ، وعلة مشتهاة . لا يودّ سليمها البرء . ولا يتمنى عليلها الإفاقة . يزُيّن للمرء ما كان

---

(١١) النظام ، إبراهيم بن سيار ، توفى حوالى سنة ٨٤٥ م ، وكان رأس المعتزلة فى البصرة ، وأستاذ الجاحظ ، وحاول أن يقاوم الميول الشعوبية الفارسية فى الإسلام ، وأعلن أن الشك هو أول وأهم ما تتطلبه المعرفة ، وتشبه نظريته هذه فى أساسها نظرية الفيلسوف الإغريقى Anaxajoras ، وعاش بين ٥٠٠ و ٤٢٨ قبل الميلاد . انظر :
• أحمد أمين : ضحى الإسلام ، جـ ٣ ص ١٠٦ وما بعدها ، ط ٣ ، القاهرة ١٣٦٢ – ١٩٤٣ م .

يأنف منه ، ويسهل عليه ما كان يصعبُ عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة ، والجبلّة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصا فى بابه إن شاء الله .

« خبر :

ولقد علمت فتى من بعض معارفى قد وجلَ فى الحب ، وتورَّط فى حبائله ، وأضرّ به الوجدُ ، وأنضحه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عز وجل فى كشف ما به ، ولا ينطق به لسانه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يحب ، على عظيم بلائه وطويل همِّه ، فما الظن بسقيم ولا يريد فَقْدَ سقمه . ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبابه ، وسوء حاله وإطراقه ما ساءنى ، فقلت له فى بعض قولى : فرّج الله عنك ، فلقد رأيت أثر الكراهيه فى وجهه .

وفى مثله أقول من كلمة طويلة :

وأستلذُّ بلائى فيكَ يا أمـــلى ... ولستُ عنك مدى الأيّام أنصرفُ
إن قيل لى أتسلىَّ عن مودّته ... فما جوابىَ إلا اللامُ والألف

« خبر :

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشى ، المعروف بالشبانسى[١٢] من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[١٣] ، أنه لم يحب أحداً قط ، ولا أسف على إلْف بان منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والألفة إلى حدّ الحب والعشق منذ خُلق .

(١٢) ترجم له الضبى فى كتابه : « بغية الملتمس » ، رقم ١٢٩٦ ، وقال إنه شاعر أديب ، وكان لابن حزم صلة به . وورد فى كل طبعات الطوق العربية « المعروف بالشلشى » وهو خطأ ، وقد صححناه عن « البغية » .

ونعرف من أقربائه معاوية بن هشام بن محمد ، ويعرف بابن الشباسى ، وكان مثله أديباً إخبارياً تاريخياً فصيحاً ، وله تاريخ فى دولة قومه بنى مروان ، وتأليف فى نسب العلوية وغيرهم من قريش سماه : « التاج السنى فى نسب آل على » ، وينقل عنه ابن حيان كثيراً فى مؤلفاته . ونلتقى بلقبه تحت صور أخرى مثل الشينسى ، أو الشبانسية . انظر :

- ابن حيان : المقتبس ، القطعة التى نشرها ملتشور أنطونيا ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣٨ .
- والقطعة التى نشرها الدكتور محمود على مكى فى أمكنة كثيرة .
- ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ص ١٠٧ ، نشر محمد عبد الله عنان .

(١٣) الأمير الأموى ، هشام الأول ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الداخل ، انظر الهامش رقم ١ فى هذا الباب .

٢

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى .

فأولها إدمان النظر ، والعينُ بابُ النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعبِّرة لضمائرها ، والمعربة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، ينتقل بتنقل المحبوب ، ويتزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس .

وفى ذلك أقول شعراً منه :

فليس لعينى عنـدَ غيرِكِ موقف كأنّك ما يحكون من حجر البُهْت
أُصرِّفها حيث انصرفتَ وكيفما تقلَّبْتُ كالمنعوت فى النَّحوِ والنَّعتِ

ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك ، وإن التكلُّف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدَّث ، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنّه عين المحال وخرق العادات ، وتصديقه وإنْ كذب ، وموافقتُه وإنْ ظلم ، والشهادة له وإنْ جار ، واتباعه كيف سلك ، وأىَّ وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنوّ منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، [والزهد فيها ، والرغبة عنها] ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه .

وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنكِ لم أمشِ إلاّ مَشْيَ عان يُقادُ نحوَ الفنـاءِ
فى مجيئ إليك أحنُّ كالبد رِ إذا كان قاطعاً للسماءِ
وقيامى إنْ قمتُ كالأنجمِ العا ليةِ الثابتات فى الإبطـاءِ

ومنها بَهت يقع ، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأتْ عيناىَ لابسَ حُمـــرةٍ تقطَّع قلبى حسرةً وتفطَّرا
غَـدا لدماءِ الناسِ باللحظ سافكاً وُضرِّجَ منها ثوبُهُ فتعفّـــرا

ومنها أن يجود المرء ببذل كلّ ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعىّ فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويُرغِّب فى نفسه . فكم بخيل جاد ، وقُطوب تطلّق ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرّب ، وجاهل تأدّب ، وَثَقِل[1] تزيّن ، وفقير تجمّل ، وذى سن تفتّى ، وناسك تفتّك ، ومصون تبذّل .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّج حريقه . وتوقُّد شعله . واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا .

ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات ، منها :

أهْوى الحديثَ إذا ما كانَ يُذكرُنى فيه ويعبَق لى عن عنبرٍ أَرِج
إنْ قال لم أستمع ممن يُجالسنى إلى سوى لفظه المستطرفِ العَنِج
ولـو يكونُ أميرُ المؤمنين معى ما كنتُ من أجلـــه عنه بمُنعرج
فإنْ أقمْ عنـــه مضطرًّا فإنّى لا أزالُ مُلتفتا والمشْىُ مشىُ وَجِ
عيناى فيـــه وجسمى عنـــه مرتحلُ مثلُ ارتقاب الغريق البرَّ فى اللججَ
أَغَصُّ بالمـــاء إنْ أذكُر تباعُدهُ كمنْ تناءب وسط النقْع والوَهَج
وإنْ تقُلْ : مُمكنٌ قصْدُ السماء أقُلْ : نعمْ وإنّى لأدْرى مَوْضع الدَّرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشىء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمّد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشربُ فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، وتحرّى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة ، والأسباب

---

(١) فى كل الطبعات العربية « وتفل » ، ولم يقف عندها أحدٌ من الناشرين العرب ، أو من الذين ترجموا الطوق إلى اللغات الأجنبية . وكان غرسية غومث الوحيد الذى رجح أن تكون « وتفر » . وربما كان ذلك أقرب إلى الصواب ، لأن « تفل » معناها : المتغير الريح ، أما « تفر » فمعناها : اتسخ ، والتافر الرجل الوسخ .

المحرِّكة ، والخواطر المهيِّجة . والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادَّها ، ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها ، تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه فى اليد فعل فعْل النار . ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين . وهذا فى العالم كثير .

فنجد المحبيْن إذا تكافيا فى المحبة ، وتأكدت بينهما تأكدا شديداً ، أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما فى القول تعمدا ، وخروجُ بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليُبدوما يعتقده كلّ واحد منهما فى صاحبه .

والفرقُ بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولِّدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعةُ الرضى : فإنك بينما ترى المحبَّيْن قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدَّر ، يصلُح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ، ولا ينجبر عند الحقود أبدا ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأهدرتْ المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة . هكذا فى الوقت الواحد مراراً . وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ، ولا يدخلنك ريب ألبتّة ، ولا تَمارَ فى أن بينهما سرًّا من الحب دفينا ، واقْطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف . ودونكها تجربة صحيحة . وخبرة صادقة . هذا لا يكون إلاّ عن تكلُّف فى المودّة وائتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيرا .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره ، ويجعلها هَجّيراه ، ولا يرتاح لشىء ارتياحه لها ، ولا ينهنه عن ذلك تخوّف أنْ يَفطن السامع . ويفهم الحاضر . وحبك الشىء يُعمى ويُصم . فلو أمكن ألا يكون حديث فى مكان يكون فيه إلا ذِكر من يحبه لما تعدّاه .

ويَعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعام ، وهو له مُشتهٍ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له مِن ذكْر مَن يحبّ ، صار الطعامُ غصّة فى الحلق ، وشجى فى المرىء ، وهكذا فى الماء وفى الحديث ، فإنه يفاتحكه مبتهجا ، فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحِوالة فى منطقه ، والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك

الوُجومُ والإطراق ، وشدة الانفلاق ؛ فبينما هو طلْق الوجه ، خفيفُ الحركات ، صار مُنطبقاً متثاقلا ، حائر النفس ، جامد الحركة ، يبرم من الكلمة ، ويضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد . ونحولُ الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلّب والحركة والمشى . دليلٌ لا يكذب ومُخبر لا يخون ، عن كلمة فى النفس كامنة .

والسهر من أعراض المحبين . وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، وحكوا أنهم رُعاة الكواكب ، وواصفو طول الليل ، وفى ذلك أقول . وأذكر كتمان السر ، وأنه يُتوسّم بالعلامات :

تَعلَّمتِ الحائبُ من شؤونى ... فعمَّتْ بالحيا السَّكْب الهتُونِ
وهذا الليلُ فيكَ غَدا رفيقى ... بذلك أمْ على سهرى مُعينى
فإن لم ينقضِ الإظلام . [٢] ... ألاَ ما أطقتْ نوما جُفونى
فليس إلى النهارِ لنا سبيلٌ ... وسُهْدٌ زائد فى كلِّ حين
كأنّ نجومَه والغيمُ يُخفى ... سناها عن مُلاحظةِ العيُون
ضميرى فى وِدادك يا مُنايا ... فليس يبينُ إلاَّ بالظُّنونُ

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النُّجوم كأنّنى كُلِّفتُ أنْ ... ارْعى جميع ثُبوتها والخُنَّسِ
فكأنّها والليلُ نيرانُ الجوى ... قد أضرِمتْ فى فكْرتى من حِنْدِس
وكأننى أمسيتُ حارسَ روضةٍ ... خضراءَ وُشِّح نبْتها بالنَّرجس
لو عاش بطليموسُ أيقن أنَّنى ... أقوى الورى فى رصْد جرْى الكُنَّس

والشىء قد يذكر لما يُوجبه : وقع لى فى هذه الأبيات تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد . وهو البيت الذى أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب فى الشعر . ولى ما هو أكملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء فى بيت واحد ، وكلاهما فى هذه القطعة التى أوردها ، وهى :

---

(٢) بياض بالأصل .

مَشُوقٌ مُعَنًّى ما يَنَامُ مُسَهَّدُ بخمْر التجنِّى ما يزالُ يُعَرْبَدُ
فى ساعة يُبدى إليك عجائباً يَمرّ ويَستحلى ويُدنى ويُبعد
كأنّ النوى والعتْبُ والهجْرَ والرِّضى قرانٌ وأندادٌ ونحسٌ وأسعُدُ
رَثَى لغرامى بعد طولِ تمنّع وأصبحتُ محسوداً وقد كنتُ أحسَدُ
نَعمْ على نَوْر من الروض زاهر سقتْه الغوادى فهو يُثْنِى ويحمَدُ
كأنّ الحيَا والمُزن والروض عاطراً دموعٌ وأجفانٌ وخدٌّ مُوَرَّدُ

ولا ينكرن علىّ مُنكر قولى « قران » ، فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين فى درجة واحدة قراناً .

ولى أيضا ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء فى بيت واحد فى هذه القطعة ، وهى :

خلوْتُ بها والراحُ ثالثةٌ لنا وجُنْحُ ظلام الليل قد مد وانبلجْ
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلاّ بقربها فهل فى ابتغاءِ العيشِ ويْحك من حرجْ
كأنّى وهى والكأسَ والخمرَ والدُّجى نَرَىً وحَيّاً والدرَّ والتبرَ والسَّبج

فهذا أمر لا مزيدَ فيه ، ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك .

ويعرض للمُحبين القلقُ عند أحد أمرين :

أحدهما عند رجائه لقاء مَن يحب فيعرضُ عند ذلك حائل .

• خبر :

وإنّى لأعلم بعضَ مَن كان محبوبُه يَعِدُه الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جائيا وذاهباً لا يقرّ به القرارُ ولا يثبت فى مكان واحد ، مقبلا مدبرا قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة .

ولى فى معنى انتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءنى الليلُ راجياً لِقاءك يا سُؤلِى ويا غايةَ الأملْ
فأيْأسنى الإظلامُ عنك ولم أكنْ لِأيْأسَ يوماً إن بَدا الليلُ يتصل
وعندى دليلٌ ليس يكذبُ خُبْرُهُ بأمثالِهِ فى مُشْكِلِ الأمرِ يُستدلْ

لأنَّك لو رُمْتَ الزيارَةَ لم يكـــنْ ظلامٌ ودام النُّورُ فينا ولم يزل

والثانى عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف . فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجليـة ، فإمَّا أنْ يذهب تحمُّله إذ رجا العفو ، وإمَّا أنْ يصير القلق حزناً وأسفا إن تخوَّف الهجر .

ويعرض للمُحب الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه ، وسيأتى مفسَّراً فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد ، والحُمرة المقطَّعة ، تغلب عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلّة الحركة والتأوّه وتنفُّس الصُّعداء .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميـــلُ الصبر مَسْجـــون ودمـــع العين مَسْفـــوح[٣]

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاءُ من علامات المحبّ ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامِل الشئون ، تُجيبه عينه ، وتحضُره عبرته إذا شاء ومنهم جَمود العين ، عديم الدَّمع ، وأنا منهم .

وكان الأصل فى ذلك إدمانى أكل الكُندر[٤] لخفقان القلب ، وكان عرض لى فى الصبا ، فإنى لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبى يتفطّر ويتقطع ، وأحس فى قلبى غُصة أمرَّ من العلقم تحول بينى وبين تَوْفية الكلام حقَّ مخارجه ، وتكاد تشوقنى النفس أحيانا . ولا تجيب عينى ألبتة إلا فى الندرة بالشىء اليسير من الدمع .

• خبر :

ولقد أذكرنى هذا الفصل : يوماً ودّعت أنا وأبو بكر محمد بن إسحاق صاحبى

---

(٣) فى الأصل : « ودموع العين سارحة » ، وقد قومه الأستاذ حسن كامل الصيرفى وأخذت بتقويمه .

(٤) الكندر : ضرب من العلك كان يمضغ لقطع البلغم .

أبا عامر محمد بن عامر(٥) صديقنا - رحمه الله - فى سفرته إلى الشرق(٦) التى لم نرَه بعدها . فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه ، ويُنشد متمثّلا بهذا البيت :

ألا إنَّ عينـاً لم تَجُد يومَ واسطٍ عليك بباقِى دَمعِها لجَمُودُ(٧)

---

(٥) أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق المهلبى الإسحاقى ، أورد له الضبى فى كتابه « بغية الملتمس » ترجمة مختصرة ، رقم ٥٩ . وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، ورافقه عندما ترك قرطبة بعد أن نهبها البربر ، وسنلتقى به أكثر من مرة عبر صفحات الكتاب ، وكان هو الذى وجه إليه ابن حزم رسالته عن فضل أهل الأندلس ، وحفظ لنا المقرى نصها كاملا فى كتابه نفح الطيب ، جـ ٤ ص ١٥٤ .

• أما أبو عامر محمد بن عامر ، فثمة احتمال بأنه يعنى أبا عامر محمد بن عبد الله بن يحيى بن أبى عامر ، وقد عرض له الضبى فى « البغية » دون تفصيل ، وخصه بالترجمة رقم ١٧١ ، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره . ويرى بروفنسال أنه بصدد حفيد المنصور بن أبى عامر ، الابن الوحيد للحاجب العامرى الثانى : المظفر عبد الملك بن أبى عامر ، وحكم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨م ، من زوجته « خيال » ، وقد خلفه عليها بعد موته القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين فى مالقة وقرطبة إبان عصر ملوك الطوائف ، فقامت على تربية أبى عامر « الذلفاء » ؛ جدته لأبيه . وكانت سنه حين سقطت دولة العامريين سبعة أعوام ، فغادر قرطبة سرًا إلى سرقسطة ، وأقام فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى . وفيما بعد عاد إلى قرطبة عام ٤١٢ هـ = ١٠٢١ م ، وحاول أن يقيم لنفسه إمارة فى مقاطعتى جيان ومرسية ، وتسمى بالمعتصم ، وبعد اضطرابات كثيرة لاذ أخيراً بحصن فى مقاطعة الغرب Algarve ، جنوبى البرتغال الآن ، وهناك مات بالجدرى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م . انظر :

• ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ١٣٣ .
• ابن الخطيب : أعمال الأعمال ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، طبعة الرباط .
• محمد عبد الله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ، ص ١٦٠ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٠ .
• Seco de Lucena Luis : Los Hammudies senores de Málaga y Algeciras, p. 13 ss., Málaga 1955.

• الباب الرابع ، الهامش رقم ١ من هذا الكتاب .
• الباب ٢١ ، الهامش رقم ٨ .
• الباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨ .

(٦) فى الطبعات العربية « المشرق » ، وصححها بروفنسال « الشرق » ، أى شرق الأندلس ، وليس المشرق المقابل للمغرب فى مصطلح مؤرخى العصر الوسيط ، وتابعه فى تصحيحه غرسية غومث ، وارتضيت رأيهما ، لأن أبا عامر هذا لم تعرف له أية رحلة إلى المشرق .

(٧) البيت من قصيدة لأبى عطاء السندى ، واسمه مرزوق ، مولى أسد بن خزيمة ، انظر :

• ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، جـ ٢ ص ٧٦٦ وما بعدها ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .
• تاريخ الطبرى ، جـ ٧ ص ٤٥٦ ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، القاهرة - دار المعارف .

وهو فى رثاء يزيد بن عمر بن هُبيرة[٨] رحمه الله ، ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة[٩] ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولا تساعدنى عينى ، فقلت مُجيباً لأبى بكر :

وإنَّ امرأً لم يُفْنِ حسنَ اصطبارِه عليك وقد فارقْتَه لجليدُ

وفى المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم ، أولها :

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفَحُ ودمعٌ على الخدّيْن يَحمى ويَسفحُ
إذا كتم المشغوفُ سرَّ ضلوعه فإنّ دموعَ العين تُبدى وتَفضحُ
إذا ما جُفونُ العين سالتْ شُئونُها ففى القلب داءٌ للغرام مُبرِّحُ

ويعرض فى الحُب سوء الظن ، واتهام كل كلمة من أحدهما ، وتوجيهها إلى غير وجهها . وهذا أصل العتاب بين المحبين . وإنى لأعلم من كان أحسن الناس ظنا ، وأوسعهم نفسا ، وأكثرهم صبراً ، وأشدّهم احتمالا ، وأرحبهم صدراً ، ثم لايحتمل ممن يُحب شيئاً . ولا يقع له معه أيسر مخالفة ، حتى يبدى من التّعديد فنونا . ومن سوء الظن وجوها .

وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

أسيءُ ظنّى بكلِّ مُحتقِرٍ تأتى به والحقيرُ من حَقَرَ
كى لا يُرى أصْلُ هجرةٍ وقلًى فالنارُ فى بَدءِ أمرها شرر

---

(٨) يزيد بن عمر ، أو عمرو ، بن هبيرة الفزارى ، عامل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق ، على العراق ، وقد أعيا أبا جعفر المنصور أمره ، فقتله غدراً فى واسط ، عام ١٣٢ هـ - ٧٥٠ م . انظر :
• المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ١٩٨ ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

(٩) مالقة Malaga : مدينة قديمة ، تقع على البحر الأبيض المتوسط . كانت فى العصر الإسلامى آهلة عامرة متصلة الكروم ، نافقة التجارة ، بها من الصناعات الهامة صناعة الفخار المذهب والزجاج والوشى ، وشهرت بالنبيذ الجيد ولا تزال ، وكانت إلى جانب هذا ميناء هاماً للتصدير والاستيراد ، وحافظت على طابعها هذا دواماً ، وهى اليوم مركز سياحى كبير ، وبلغ عدد سكانها الآن ٣٢٥ ألفاً تقريباً . ولا تزال قلعتها العربية قائمة على جبل يطل على البحر . وزرتها أكثر من مرة ، ويربطها بكل من مدينتى سبتة وطنجة على الشاطئ المغربى خط ملاحى ، وكانت مالقة من بين أواخر المدن التى خسرها المسلمون فى الأندلس ، فقد سقطت فى يد الكاثوليك عام ١٤٨٧ م . انظر :
• المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٤٤ و جـ ٤ ص ٢٠٥ .
• الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٧٧ - ١٧٩ .
Guillen Robles F. : Málaga musulmana, 2 edi., Málaga 1957

وأصْـلُ عُظْمِ الأمـورِ أهوَنُهـا ومن صغير النَّوى تـرى الشَجَر

وترى المُحب ، إذا لم يَثق بنقاء طَوية محبوبه له ، كثيرَ التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك ، مثقفاً لكلامه ، مزيِّناً لحركاته ومرامى طرفه ، ولا سيما إن دُهىَ بُمتجنٍّ وبُلى بمُعربد .

ومن آياته مراعاةُ المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبّعه لحركاته . ولعمرى لقد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا ، والغافلَ فطناً .

٥ خبر :

ولقد كنتُ يوماً بالمريَّة ، قاعداً فى دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى ، وكان بصيراً بالفراسة محسناً لها ، وكنّا فى لَمَّة ، فقال له مجاهدبن الحصين القيسى[١٠] : ما تقول فى هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنَّا ناحيةً ، اسمه حاتم ، ويكنى أبا البقاء ، فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين قلت هذا ؟ قال : لِبَهْت مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنه عاشق وليس بمُريب .

---

(١٠) لم أجد فيما بين يدى من المصادر ما يلقى ضوءاً على شخصيتى إسماعيل بن يونس الطبيب ، ومجاهد بن الحصين القيسى .

٣

باب من أحب فى النوم

ولابُد لكل حُب من سبب يكون له أصلا ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أســـبابه . ليجرى الكلامُ على نسق ، أو أن يبتدأ أبدا بالسهل والأهون . فمن أسبابه شيء لولا أنِّى شاهدته لم أذكره لغرابته .

* خبر :

وذلك أنِّى دخلتُ يوماً على أبى السرى عمار بن زياد صاحبنا ، مولى المؤيد[1] ، فوجدته مفكرا مهتماً ، فسألته عمَّا به ، فتمنَّع ساعة ثم قال : لى أعجوبةٌ ، ما سُمِعَتْ قط . قلت : وما ذاك ؟ قال رأيتُ فى نومى الليلةَ جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها ، وهمْت بها . وإنى لفى أصعب حال من حبها . ولقد بقى أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شيء وَجْداً ، إلى أنْ عذلْتُهُ وقلتُ له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلِّق وهمك بمعدوم لا يوجد ، هل تعلم مَن هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأى ، مُصاب البصيرة ، إذ تحب مَن لَم تره قط ، ولا خُلق ولا هو فى الدنيا . ولو عشقتَ صورة من صور الحمّام[2] لكنتَ عندى أعذر ،

---

(١) المؤيد ، هشام الثانى . حكم مرتين : أولاهما من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ م ، والثانية من ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ م ، وللمزيد من أخباره انظر :

* ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ٣ وما بعدها .
* أمّا أبو السرى عمار بن زياد فلم أهتد له إلى أية ترجمة .

(٢) يشير ابن حزم إلى ملمح جميل من ملامح الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، فحين فتحها المسلمون ابقوا على التراث الرومانى الذى وجدوه ، ويتمثل فى عدد كبير من التماثيل الجميلة ، وأفادوا منها فى تزيين البيوت والحدائق والحمامات بخاصة ، وقد رسم لنا أبو تمام بن رباح الحجام صورة شعرية جميلة ، لتمثال مريم العذراء ، تحمل المسيح بين يديها ، وكان موضوعاً فى حمام الشطارة فى إشبيلية :

ودميـــة مرمر تزهى بجيـــد تناهى فى التورد والبياض
لهـــا ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
ونعلم أنهـــا حجر ، ولكن تنبهنـــــا بألحاظ مراض

وقد أورد نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، هذه الأبيات غير منسوبة لأحد .

فمازِلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضغاثها ، وداخل فى باب التمنى وتخيل الفكر .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ياليتَ شِعْرِىَ من كانتْ وكيف سرَتْ	أطلعة الشمس كانتْ أم هى القمرُ
أظُنُّها العقلِ أبـــداه تدبُّـــرُهُ	أو صورةُ الروح أبْدتْها لىَ الفِكر
أو صورةٌ مُثِّلتْ فى النفسِ مِـــن أملى	فقـد تَحيَّر فى إدراكهـــا البصر
أوْ لم يكن كلُّ هـذا فهى حادثـةٌ	أتَى بهـا سبباً فى حَتْفَىَ القَـــدَر

٤

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المُعاينة ، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة ، والهم والوجد ، والسهر على غير الإبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار ، تأثيراً فى النفس ظاهراً . وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال .

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أساس ، وذلك أنّ الذى أفرغ ذهنه فى هوى مَن لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعيناً يقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرَها ، قد مال بوَهْمه نحوها ، فإنْ وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية . وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربَّات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحبُّ النساء فى هذا أثبتُ من حُب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ويامـــــن لامنى فى حُبِّ مَنْ لم يَـــره طَرْفى
لقـــد أفرطتَ فى وصفِك لى فى الحبِّ بالضَّعفِ
فَقُلْ : هل تُعرَفُ الجنَّـةُ يوماً بِسوى الوصْـفِ

وأقول شعراً فى استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حلَّ جيشُ الغـــرام سمْعِى وَهْـوَ على مُقلتىَّ يبـــــدو

وأقول أيضاً فى مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية :

وصفُوكَ لى حتى إذا أبصرتُ مـا وصَفـوا علمتُ بأنّـه هَذيانُ
فالطبْلُ جلدٌ فـــارغٌ وطنينُـهُ يرتاعُ منـــه ويَفْرَقُ الإنسانُ

وفى ضد هذا أقول :

لقـــد وصفوكَ لى حتى التقيْنَـــا فصـــارَ الظنُّ حقًّا فى العِيـــانِ

فأوصـــافُ الجِنـــان مُقصِّراتٌ على التحقيق عن قَدْر الجِنَـــانِ

وإنَّ هذه الأحوال لتحدُث بين الأصدقاء والإخوان ، وعنى أَحدَّثُ .

* خبر :

إنه كان بيني وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد ، وخطاب كثير ، وما تراءينا قط ، ثم منح الله لى لقاءه ، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن . فقلت فى ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كُرهاً وفرْطَ قِلى كما الصحائف قـد يُبدلْن بالنَّسْخ

ووقع لى ضد هذا مع أبى عامر بن أبى عامر[1] رحمة الله عليه . فإنى كنت له على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلا يُحمل إليه عنى وإلىَّ عنه ، ويؤكِّده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا . ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أودّ الناس ، وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخٌ لِىَ كَنَّبنيـــه اللقـــاءُ وأوجدنى فيـــه عِلْقاً شريفـا
وقـد كنتُ أكرهُ منـــه الجـوارَ وما كنتُ أرغبُـــــهُ لِى أليفاً
وكان البغيضَ فصـــــار الحبيبَ وكان الثقيلَ فصـــــار الخفيفـا
وقد كنتُ أُدْمِـنُ عنـــه الوجيفَ فصرتُ أديمُ إليـــه الوجيفـا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرى[2] فكان لى صديقاً مدة على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

---

(١) الحديث أكيداً عن ابن لعبد الملك المظفر ، وعرضنا له من قبل ، فى الباب الثانى ، الهامش رقم ٥ . وبنى أنا يصدد المظفر نفسه فارق السن بينه وبين ابن حزم ، فلقد كان والد ابن حزم والمظفر نفسه فى خدمة هشام الثانى المؤيد ، كما يفهم ذلك من كلام المؤلف . انظر أيضاً :
* الباب ٢١ ، الهامش رقم ٨ . * الباب ٢٩ ، الهامش رقم ١٨ .

(٢) ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، الترجمة رقم ١١٠٧ ، وأورد اسمه كاملا : عبد الواحد (بدلا من عبد الرحمن) بن محمد بن موهب بن محمد التجيبى ، أبو شاكر ، ويعرف بابن القبرى . وقال إنه فقيه محدث أديب خطيب ، نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وأورد له الضبى ، برواية ابن حزم ، أبياتاً من الشعر ، وذكر أنه توفى عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م وسنلتقى به فيما بعد مرة أخرى فى الباب الثامن والعشرين .

٥

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف للذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرءُ صورة لا يعلم من هى ، ولا يدرى لها اسما ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

• خبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق[١] عن ثقة أخبره ، سقط عنى اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء[٢] ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادىّ[٣]

---

(١) عن أبى بكر محمد بن أحمد بن إسحاق ، انظر :
• الباب الثانى ، الهامش رقم ٥ .

(٢) القاضى محمد بن يحيى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحذاء ، فقيه محدث حافظ ، له رحلة إلى المشرق ، توفى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، وقد خصه الضبى فى كتابه « البغية » بترجمة قصيرة ، انظر :
• الضبى : البغية ، الترجمة رقم ٣١٩ .
• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١١٠٢ .

(٣) يوسف بن هارون الرمادى الكندى ، يكنى أبا عمر ، من كبار شعراء الأندلس على أيام المنصور بن أبى عامر ، وجانب كبير من شعره ضاع ولم يصلنا . والرمادى ليس نسبة إلى موضع بالمغرب كما وهم الحميدى فى كتابه « جذوة المقتبس » ، وإنما الصورة العربية لكنيته باللغة الرومانثية على أيامه ، فقد كان يلقب بأبى جنيش ، فنقل إلى الرمادى ، لأن جنيش فى رومانثية الأندلس ، وفى الأسبانية المعاصرة ، تعنى الرماد . توفى سنة ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م . انظر :
• الحميدى : جذوة المقتبس من بغية الملتمس ، ص ٣٤٦ .
• ابن خاقان ، الفتح : مطمح الأنفس ، ص ٦٩ .
• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٤٩١ ، القاهرة ١٩٦٦ .
• ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٣٩٢ ، تحقيق شوقى ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

* González Palencia : Historia de la literatura arábigo - española, p. 59, 2 edi., Barcelona 1945.

والترجمة العربية له ص ٦٨ .

* Asín Palacios : Abenházam de Córdoba, Vol. I, p. 53, Madrid 1927.

كان مجتازاً عند باب العطارين (٤) بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلّل حبُّها جميعَ أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يَتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة (٥) . فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَبض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان – رحمهم الله – المبنية على قبورهم فى مقبَرة الربض ، خلّف النهر ، نظرت منه منفرداً عن الناس ، لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها . فقالت له : دع عنك هذا ، ولا تطلُب فضيحتى ، فلا مطمع لك فىّ البتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : يا سيدتى : أحرة أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خَلْوَة . قال : ولِمن أنت فقالت له : عِلْمُكَ والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه . فدع المحال . فقال لها : يا سيدتى ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتَنى اليومَ .

---

(٤) باب العطارين ، أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة ، ويقع فى الجانب الغربى من المدينة ، ومنه يبدأ الطريق المؤدى إلى إشبيلية ، ومن هنا كان يعرف أيضاً باسم باب إشبيلية ، وحوله كانت تقوم تجارة العطور وأدوات الزينة ، فأصبح ملتقى النساء من كل أنحاء المدينة ، وعلى مقربة منه كان حى الرقاقين ، الذين يصنعون الرقاق ، ومسجد النخيلة . انظر :

• المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

* Lévi - Provençal : L'Espagne Musulmane au Xeme. siécle, p. 204, Paris 1932.

(٥) القنطرة جسر قديم على الوادى الكبير ، وتقول الرواية إن الإمبراطور الرومانى أوجست Auguste (٦٣ ق م – ١٤ م) أمر بإنشائه ، وبقى طوال العصر الإسلامى موضع رعاية الدولة وعنايتها ، وكان أول تجديد أصابه على يد الوالى السمح الخولانى ، بأمر من عمر بن عبد العزيز ، ثم جدد ورمم بعد ذلك فى عصور مختلفة أكثر من مرة . وكان يقع عند نهاية الشارع الرئيسى فى قرطبة الإسلامية ، ويسمى بالمحجة العظمى ، ويبدأ من أعلى المدينة ، عند باب عبد الجبار ، ماراً بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، ويعرف أيضاً باسم باب الوادى ، والوادى تعنى النهر فى لغة الأندلس ، وباسم باب الجزيرة الخضراء . وكان يصل بين المدينة وربضها المواقع على الضفة الأخرى من النهر ، ويدعى ربض شقندة ، وهو تعريب لاسمه اللاتينى Secunda ، وكان يعد من المدينة لامن ضواحيها ، لأنه قديم ومسور ، وكان يسكنه العمال وأهل الأسواق ، وفيه اندلعت الثورة على الحكم الأول ، وإلى الربض نسبت ، وقد انتصر فيها الحكم بعد عناء ، فنفى سكانه ، وأتى على بنيانه ، وتحول فى جانب منه إلى مقبرة عرفت باسم مقبرة الربض . انظر :

* Lévi - Provençal : op. cit., p. 205 - 207.

• المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ص ٢٦ .

• ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٣ ، طبعة القاهرة ١٩٦٣ .

فى مثل تلك الساعة من كلّ جمعة . فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا ؟ فقال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمرو ، وهو يوسف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن ، فما وقعت لها على خبر ، ولا أدرى أسماءٌ لحَسَنها أم أرض بلغتها ، وإن فى قلبى منها لأحزّ من الجمر . وهى حَلْوة التى يتغزل بها فى أشعاره .

ثم وقع بعد ذلك على خَبَرها بعد رحيله فى سببها إلى سَرَقُسطة[٦] فى قصة طويلة[٧] ، ومثل ذلك كثير .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عَيْنِى جَنَتْ فى فؤادِى لوعةَ الفِكَرِ ... فأرْسَل الدمعَ مُقْتَصًّا من البصرِ
فكيف تُبْصِرُ فعلَ الدمعِ مُنتصفاً ... منها بإغراقِها فى دَمْعِها الدُّرر
لم ألْقَهَا قبل إبصارِى فأعرِفَها ... وآخرُ العهدِ منها ساعةُ النظرِ

° ° °

(٦) سرقسطة : فى شمال شرق الأندلس . مدينة قديمة جداً ، وقد جعل منها الإمبراطور الرومانى أوجست مستعمرة حربية أعطاها اسمه Caesareaugust ، وحرف على أيام القوط فأصبح Cesarguste ، وصار على أيام المسلمين سرقسطة ، ومنها جاءت التسمية الإسبانية Zaragoza وكانت على أيام المسلمين قاعدة الثغر الأعلى ، وعرفت بعروس الإبرو ، النهر الذى تقع عليه . وسميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، أو لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض ، ويصفها الحميرى بأنها « ممتدة الأطناب ، واسعة الشوارع ، حسنة الديار والمساكن ، متصلة الجنات والبساتين » . ومن آثارها الإسلامية القائمة حتى يومنا هذا قصر الجعفرية La Jaferia ، وكان مقراً لبنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف ، وقد سقطت المدينة صلحاً فى يد الكاثوليك فى ٤ من رمضان ٥١٢ هـ = ١٩ من ديسمبر ١١١٨ م ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وأصبحت حاضرة مملكة أرجون المسيحية ، وتخلفت فيها جاليات إسلامية كبيرة ، حملت اسم المدجنين ، وعاشت فيها ، وفى مقاطعتها ، قروناً طويلة ، وقامت بدور بارز فى نقل الحضارة الإسلامية إلى الغزاة الكاثوليك ، وبخاصة فى مجال المعمار ، وشهرت طوبقتهم باسم فن المدجنين . وهى اليوم مدينة كبيرة عامرة ، يبلغ تعدادها قرابة ٣٨٠ ألفاً . انظر :

• الحميرى : الروض المعطار ، ص ٩٦ - ٩٨ . • المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ١٤٣ .

* Cagigas Isidoro de las : Los Mudejares, tomo II, y ss. Madrid 1949.

* Calzada Andrés : Historia de la Arquitectura espanola. 2 edi., p. 122 ss., Borcelona 1949.

(٧) أورد الضبى جانباً من هذه القصة ، فى ترجمته ليوسف ، انظر :

• البغية ، الترجمة رقم ١٤٥١ .

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرءُ من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سرعة الفناء وإبطائه . فمن أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبِرٌ بسرعة السلو ، وشاهد الظرافة والملل . وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نموا أسرعها فناء . وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفاداً .

* خبر :

إنى لأعلم فتى من أبناء الكُتاب رأته امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب . وهو مجتاز ، ورأته فى موضع تَطلع منه كان فى منزلها ، فعلقتْه وعَلقها . وتهاديا المراسلة زمانا على أرق من حد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد ، لأوردت مما صح عندى أشياء تحير اللبيب ، وتدهش العاقل . أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنّه ، وكفانا .

٦

باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخالفة ، وكثير المُشاهدة ، ومتمادى الأنس . وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرّ الليالى . فما دَخل عسيراً لم يخرج يسيراً . وهذا مذهبى . وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم . وهو فخّار . فهاب وجزع : ادخل كرهاً واخرج كرهاً . حُدِّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إنْ أحس من نفسه بابتداء هوى ، أو توجس من استحسانه ميلا إلى بعض الصور . استعمل الحجر وترك الإلمام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويحال بين العَيْر والنزوان . وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنّه إذا تمكن منهم لم يحل أبداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبْعُدُ عــن دواعى الحبِّ إنّى ... رأيتُ الحــزمَ من صِفــةِ الرشيدِ
رأيتُ الحُبَّ أوّلُــهُ التصــدّى ... بعَيْنِكَ فى أزاهير الخُــــدودِ
فبَيْنــا أنتَ مُغتبطٌ مُخــلىً ... إذا قد صِرْتَ فى حَلَقِ القيود
كمُغترٍّ بضحضــاحٍ قريبٍ ... فزلَّ فغابَ فى غَمْــرِ المــدُود

وإنى لأطيل العجب من كل مَن يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه . ولا أجعل حُبه إلا ضرباً من الشهوة . وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حُب قطُّ إلا مع الزمن الطويل . وبعد ملازمة الشخص لى دهراً . وأخْدى معه فى كل جدّ وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوقّى . فما نسيت وداً لى قط ، وإنْ حنينى إلى كل عهد تقدّم لى ليَغصّنى بالطعامُ ويُشرقنى بالماء . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به . ولا أسرعت إلى الأنس بشىء قط أول لقائى له . وما رغبت فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت .

لا أقول فى الألاّف والإخوان وحدهم . ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم ، وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ، ولا فارقنى الإطراق والانفلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشحى يعتادنى ، وولوع همّ ما ينفك يطْرقنى ، ولقد نَغّص تذكّرى ما مَضى كل عيش أستأنفه . وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

مَحبّةُ صِدْقٍ لم تكن بنتَ ساعةٍ ... ولا وَرِيتْ حين ارتيادٍ زِنَادُهـــا
ولكنْ على مَهْلٍ سَرَتْ وتولّدتْ ... بطول امتراحٍ فاستقرّ عمادُها
فلم يَدْنُ منها عزْمُهـــا وانتقاضُـها ... ولم يَنْأ عنها مُكْثُهـــا وازديادُهـــا
يؤكّـد ذا أنّا نـــرى كلَّ نشأةٍ ... تَمُّ سريعا عـــن قريبٍ معادها
ولكنّى أرضٌ عزازٌ صَليبـــــةٌ ... منيعٌ إلى كلّ الغروسِ انقيادُهـــا
فما نفذتْ منهـا لديْها غُروقُهـــا ... فليستْ تُبالى أن يجود عهادُها

ولا يظن ظانّ ، ولا يتوهّم متوهم ، أن كل هذا مخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة . أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العُلْوى ، بل هو مؤكد له ، فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأغراض ، وأحاطت بهـا الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتهـا ، وإن كانت لم تحله لكن حالت دونه . فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس ، والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدىّ ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة . فإذا غَلبت الشهوة ، وتجاوزت هذا الحد ، ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمى عشقا ، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ، ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا انفا . وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثان .

وفى ذلك أقول .

كذب المُدَّعِى هوى اثنين حتْما ... مثل ما فى الأصول أكذب مانى
ليس فى القلب موْضع لحبيبِ ... نِ ولا أحْدث الأمـورِ بثانى
فكما العقلُ واحـدٌ ليس يـدرى ... خالقا غير واحـد رحمـان
فكذا القلبُ واحدٌ ليس يهـوى ... غيرَ فرد مُباعـد أو مـدان
هُوَ فى شِرْعـة المودّة ذو شِـرْ ... كٍ بعيدٌ مِن صحّة الإيمـان
وكذا الدِّيـنُ واحـدٌ مستقيمٌ ... وكَفُورٌ مَـن عنْـده ديـنان

وإنى لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب ، كان يبتاع الجارية وهى سالمة الصدر من حُبه . وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه . وقُطوب دائم كان لايفارقه . ولاسيما مع النساء . فكان لايلبث إلا يسيرًا ريثما يصل إليها بالجماع . ويعود ذلك الكُرْهُ حبا مُفرطا . وكلفا زائدا . واستهتارا مكشوفا . ويتحول الضجر لصحبته ضجرا لفراقه . صحبه هذا الأمر فى عدة منهن ، فقال بعض إخوانى : فسألته عن ذلك فتبسم نحوى وقال : إذا والله أخبرك . أنى أبطأ الناس إنزالا . تقضى المرأة شهوتها ، وربما ثنت ، وإنزالى وشهوتى لم ينقضيا بعد . وما فترت بعدها قط . وإنى لأبقى بُمْنَى بعد انقضائها الحين الصالح ، وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدى المعانقة . وبحسب ارتفاع صدرى نزولُ مؤخرى (١)

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة . إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

---

(١) نلتقى بالفكرة نفسها ، فى أكثر من موضع ، من مؤلفات الشاعر اللاتينى اوفيد Ovide (٤٣ ق م – ١٧ م) : « غراميات Amours » و « فن الحب L'Art d'Aimer ». وقد ترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان : « فن الهوى » و « شفاء الحب Remède de l'amour » انظر :

* Dictionnaire des littératures, vol. III, p. 1943, Paris 1968.
* Gomblanc Ed. : Historia general de la literatura, p. 186 ss., Madrid sin fecha.
* Norsen N. : Lo sexual a través de los anos, en la revista de "Luz", p. 464 ss., Julio 1963, New York.

٧

باب من أحب صفة

لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم – أعزّك الله – أن للحُب حكما على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً . وأمراً لا يُخالف ، وحدّا لا يُعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف . ونفاذاً لا يرد . وأنه ينغص المِرَر . ويَحْلوّ المُبرم ، ويحُلِّل الجامد . ويخل الثابت . ويحل الشغافَ . ويُحلّ الممنوع .

ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون فى تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط فى معرفتهم . ولا اختلال يحُسن اختيارهم ، ولا تقصير فى حَدْسهم . قد وصفوا أحباباً لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس . ولا يُرْضى فى الجمال . فصارت هجّيراهم . وعُرضة لأهوائهم . ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بيْن أو هجر . أو بعض عوارض الحب . وما فارقهم استحسان تلك الصفات ، ولا بان عنهم تفضيلُها ، على ما هو أفضل منها فى الخليقة . ولا مالوا إلى سواها ، بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورة عندهم . وساقطة لديهم ، إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم ، حنينا منهم إلى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه . وما أقول إنّ ذلك كان تصنّعا لكن طبعا حقيقيّا ، واختياراً لا دَخَل فيه . ولا يرون سواه ، ولا يقولون فى طىّ عَقْدهم بغيره .

وإنى لأعرف من كان فى جِيد حبيبه بعضُ الوقص ، فما استحسن أغيد ولاغيداء بعد ذلك . وأعرف مَن كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر . فما أحبَّ طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضاً مَن هوى جارية فى فمها فَوه لطيف ، فلقد كان يتقذّر كل فم صغير ويذُمه ، ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصى الحُظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطاً فى الإدراك ، وأحقهم باسم الفهم والدّراية .

* * *

وعنّى أخبرك :

أنى أحببتُ فى صباى جارية لى شقراء الشعر . فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت . ولا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة . وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه .

وأما جماعة خلفاء بنى مروان - رحمهم الله - ولا سيما ولدُ الناصر[1] منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف . وقد رأيناهم ، ورأينا من رآهم ، من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعا إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر[2] رحمة الله ، فإنى رأيته أسود اللمّة واللحية .

وأما الناصر والحكم المُستنصر[3] ، رضى الله عنهما . فحدثنى الوزير أبى رحمه الله

---

(١) يشير إلى عبد الرحمن الناصر ، أول وأعظم خليفة أندلسى ، وحكم من ٩١٢ إلى ٩٦١ ، انظر :

- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٣٠ وما بعدها .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ١٩٧ وما بعدها .
- ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ١٨١ وما بعدها .

(٢) سليمان الظافر ، ويعرف بالمستعين ، تولى الخلافة خلال فتنة قرطبة عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وتسمى حينئذ الظافر بالله ، إلى جانب لقب المستعين بالله ، ثم أخرج من قرطبة مهزوماً ، وعاد إليها ثانية خليفة عام ١٠١٣ م ، وبقى فى الخلافة حتى عام ١٠١٦ م . وكان من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة ، وقد أمدنا ابن الأبار بتفصيلات وافية ودقيقة عن الأحداث التى اضطرب فيها ، انظر :

- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ٥ وما بعدها .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ٩١ .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤٠٣ وما بعدها .
- ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) الحكم المستنصر ، ثانى خلفاء بنى أمية فى قرطبة ، ولى الخلافة بعد أبيه الناصر ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، وظل خليفة حتى وفاته فى ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م . وكان حسن السيرة ، جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب فى أنواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . ويحكى ابن حزم ، عن تليد الخصى وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر . انظر :

- المقرى : نفح الطيب ، ،جـ ١ ص ٣٦١ وما بعدها .
- ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١٨٦ .
- ابن الأبار : الحلة ، جـ ١ ، ص ٢٠٠ .
- Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, tomo I, p. 193, Madrid 1928.

وغيره : أنهما كانا أشقرين أشهلين . وكذلك هشام المؤيّد[٤] . ومحمد المهدى[٥] ، وعبد الرحمن المرتضى[٦] رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مرارا ، ودخلت عليهم ، فرأيتهم شُقراً شُهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدرى أذلك استحسان مركّب فى جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم فى ذلك فجروا عليها . وهذا ظاهر فى شعر أبى عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير

---

(٤) هشام المؤيد ، ابن الحكم المستنصر ، تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان صبيا غراً ، مشتغلا باللعب واللهو والخلاعة ، فحجر عليه وزيره المنصور بن أبى عامر ، ولم يترك له سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم ، وبدأ ما يعرف فى تاريخ الأندلس بعصر الحجابة ، وفيه كانت القوة الفعلية بيد المنصور ، الذى تسمى بالحاجب ، وقد تولى هشام الخلافة على فترتين ، من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ . انظر :

- ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٦٢ ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مدريد ١٩٧١ .
- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ، ص ٣ وما بعدها .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٧٢ .

(٥) المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أول من ثار من بنى أمية الأندلسيين على الحاجب العامرى الثالث ، عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكانت العامة تسميه شنجول ، أخذا من كلمة Sanchuelo ، تصغير لفظ Sancho أى شانجه الصغير ، وشانجه ملك نبرة (٩٧٠ - ٩٩٥ م) جده لأمه ، فقد تزوج المنصور ابن أبى عامر ابنة ملك نبرة ، واعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم عبدة ، وأنجب منها المنصور عبد الرحمن هذا ، وحاول أن يجعل من نفسه ولى عهد الخليفة ، وقد تزعم المهدى الثورة دفاعاً عن حق بنى أمية فى الخلافة ، وثأر لأبيه ، وكان عبد الرحمن قد قتله ، وتبعته عامة قرطبة ، ودفع بهم إلى مدينة الزاهرة مقر العامريين فانتهبوها ، وقتل عبد الرحمن ، وأعلن نفسه خليفة عام ١٠٠٨ ، ولكن خلافته لم تطل فقد قتل عام ١٠١٠ بعد أحداث أسيفة . انظر :

- ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٣ ص ٥٠ وما بعدها .
- المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٤٠٢ .
- ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ص ٦٢ وما بعدها .

(٦) عبد الرحمن بن محمد ، من ولد عبد الرحمن الناصر ، نصب خليفة بشرق الأندلس ، وتسمى المرتضى ، وقد حاول بمن معه أن ينتزع قرطبة من القاسم بن حمود ، وهو فى طريقه إليها اصطدم بزاوى بن زيرى بن مناد ، أمير غرناطة . وكان ابن حزم مع الخليفة المرتضى فى حملته هذه ، وقد اقتتل الفريقان أياماً ، ثم انهزم الأندلسيون ، بتعبير ابن بسام ، بقيادة المرتضى ، أمام بربر غرناطة بقيادة زاوى ، وتفرق جيش المرتضى لا يلوى أحد على أحد ، تاركين وراءهم زادهم وعتادهم ، وفرّ المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وهناك اغتالته عصابة مستأجرة ، فى ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م . انظر :

- ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٩٧ ، وما بعدها . القاهرة ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

المؤمنين الناصر ، وهو المعروف بالطليق[٧] ، وكان أشعر أهل الأندلس فى زمانه ، وأكثر تغزله فبالشُّقر . وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك فى سواه فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ، ثم غلب عليه هوى عارضٌ بعد طول بقائه فى الجماعة ، فأحاله عما عهدتْه نفسُه حوالة صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول . وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلاّ الأدنى ، فأعجب لهذا التغلب الشديد ، والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقا ، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدّعى غريزة لا تقبله ، فيزعم أنه يتخيّر من يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخيّل والارتياد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

منهمْ فتىً كان فى محبوبه وقصٌ ... كأنّما العَبْدُ فى عَيْنيه جنّانُ
وكان مُنبسطاً فى فضْلِ خيرَتِه ... بحجّةٍ حقُّها فى القوْل تِبْيان
إن المَهَا وبها الأمثالُ سائرةٌ ... لا يُنْكِرُ الحسنَ فيه الدهرَ إنسان
وقْصٌ فليس بها عنقاءُ واحِدةٌ ... وهل تُزانُ بطولِ الجيدِ بُعْران
وآخرُ كان فى محبوبه فَوَهٌ ... يقول حَسْبِيَ فى الأفواه غِزْلان
وثالثٌ كان فى محبوبه قِصرٌ ... يقول إنّ ذواتِ الطُّول غِيلان

وأقول أيضاً :

يَعيبونَها عندى بشُقْرَة شعرها ... فقلتُ لهم هذا الذى زانها عندى
يعيبون لون النَّوْر والتِّبر ضِلّةً ... لرأْيِ جهولٍ فى الغواية ممتد

---

(٧) ورد الاسم محرفاً فى الطبعات العربية على النحو التالى : « . . . فى شعر عبد الملك بن مروان » ، وقد صححناه ، وهو أشهر من أن يخطئ إنسان فى كتابه اسمه . ولمعرفة الشاعر الطليق ، انظر :
• غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص ٨٣ وما بعدها ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .

وهل عابَ لونَ النرجسِ الغضِّ عائبٌ ... ولونَ النجومِ الزاهراتِ على البُعْدِ
وأبعدُ خلقِ اللهِ من كُلِّ حكمةٍ ... مُفَضِّلُ جِرْمٍ فاحمِ اللونِ مُسودّ
بهِ وُسِفتْ ألوانُ أهلِ جهنَّمٍ ... ولِبْسةُ باكٍ مُثْكلِ الأهلِ مُحْتَدّ
ومُذ لاحت الراياتُ سُوداً تيقَّنتْ ... نفوسُ الورَى أنْ لا سبيلَ إلى الرُّشد

٨

باب التعريض بالقول

ولا بد لكل مطلوب من مَدخل إليه ، وسبب يُتوصَّل به نحوه . فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليمُ الأول جلّ ثناؤه . فأول ما يستعمل طلاب الوصل ، أو أهل المحبة فى كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريضُ بالقول : إمّا بإنشاد شعر ، أو بإرسال مُثَل . أوتعمية بيت ، أوطرح لغز ، أوتسليط كلام .

والناس يختلفون فى ذلك على قدر إدراكهم ، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم ، من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة . وإنى لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلتُها . فهذا وشبهه يبتدئ به الطالب للمودة ، فإن رأى أنسا وتسهيلا زاد . وإنْ يعاين شيئاً من هذه الأمور فى حين إنشاده لشىء مما ذكرنا ، أو ايراده لبعض المعانى التى حددنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لمُوقِف بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً . ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول جنس ثان . ولا يكون إلا بعد الاتفاق . ومعرفة المحبّة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكّى . وعقد المواعيد . والتقرير ، وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غيرُ ما يذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى الى المقصود بالكلام ، على حسب ما يتأدى إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كلُّ واحد منهما عن صاحبه ، وأجابه بما لا يفهمه غيرهما ، إلا من أُيِّد بحسّ نافذ ، وأُعين بذكاء ، وأُمد بتجربة ، ولا سيما إنْ أحس من معانيهما بشىء ، وقلما يغيب عن المتوسم المُجيد ، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها فى بعض وصْلها على بعض مالا يجمل . فقالت : والله لأشكونّك فى الملإ علانية ، ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر الملوك ، وأركان الدولة ، وأجلّ

رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوقَّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفى جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفى المجلس مغنيات غيرُها ، فلما انتهى الغناء إليها سوّت عودها واندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهى :

غَـزالٌ قد حكى بـدرَ التَّمامِ ... كشمسٍ قـد تجلّتْ مـن غَمامِ
سبَى قلْبى بألحـاظٍ مِـراضٍ ... وقَـدِّ الغصنِ فى حُسْنِ القَـوام
خضعتُ خضوعَ صبٍّ مستكينٍ ... لـه وذلَلْتُ ذِلَّـةَ مُسْتَهام
فَصِلْنى يا فديتُـك فى حـلالٍ ... فمـا أهوى وِصـالاً فى حـرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عتـابٌ واقـعٌ وشَكاةُ ظُلمٍ ... أتتْ مـن ظالمٍ حكَمٍ وخَصْمِ
تشكَّتْ ما بهـا لم يـدر خلقٌ ... سوى المشكُوِّ ما كانت تُسمّى

٩

باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقول ، إذا وقع القبولُ والموافقة . الإشارة بلحظ العين . وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقام المحمود . ويبلغ المبلغ العجيب . ويُقطع به ويُتواصل . ويُوعد ويهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الأوعاد . وينبه على الرقيب . ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية . ولا يمكن تصويره ولا وصفهُ إلا بالأقل منه . وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بمؤخّر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُّسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة ، وأوعاها عملا ، وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق ، وتميّز الصفات وتفهم المحسوسات . وقد قيل ليس المُخبرُ كالمعاين ، وقد ذكر ذلك افليمون[1] صاحبُ الفِراسة ، وجعلها معتمدة فى الحكم .

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شُعاعاً مجلوًّا صافيا . إماحديداً مفصولا أوزجاجاً أوماء ، أو بعض الحجارة الصافية . اوسائر الأشياء المجلوة البراقة ، ذوات

---

(١) أفليمون Philemon أشهر مؤلف إغريقى فى علم الفراسة ، وقد ازدهر فى القرن الثانى للميلاد .

الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر ممّاع كدر ، انعكس شعاعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً ، وهو الذى ترى فى المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين ، فتمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك ، والثانية بيسارك قبالة وجهك ، ثم تزويها قليلا حتى يلتقيا بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك ، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلفك ، إذ لم تجد منفذا فى التى بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظام[٢] خالف فى الإدراك ، فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد .

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانة ، لأنها نوريّة لا تُدرَك الألوان بسواها ، ولا شىء أبعد مرمى ، ولا أنأى غاية منها ، لأنها تُدرِك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلاّ لاتصالها فى طبع خِلقتها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقّل الحركات . وليس هذا لشىء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى الصوت قبل سماع الصوت ، وإنْ تعمّدت إدراكهما معاً . وإنْ كان إدراكهما واحداً لَمَا تقدمت العينُ السمعَ[٣] .

---

(٢) عن النظام ، انظر : الباب الأول ، الهامش رقم ١١ .

(٣) عرض ابن حزم لنظريته فى الرؤية تفصيلا فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » .

١٠

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك ، إذا امتزجا ، المراسلةُ بالكتب ، وللكتب آيات .

ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكُتبِ ، وبحلِّها فى الماء ، ومحو أثرها ، فُرب فضيحة كانت بسبب كتاب .

وفى ذلك أقول :

عزيزٌ علىَّ اليومَ قطعُ كتابِكُمْ ... ولكنّه لم يُلْفَ للودِّ قاطِعُ
فآثرتُ أن يَبْقى ودادٌ ويَنمحى ... مِدادٌ فإن الفَرعَ للأصلِ تابع
فكم من كتابٍ فيه مِيتَةُ ربِّه ... ولم يَدرِه إذْ مُقتْهُ الأصابع

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال ، وجنسه أملحَ الأجناس . ولعمرى إن الكتاب لِلسان فى بعض الأحايين ، إمّا لحصرٍ فى الانسان ، وإمّا لحياء ، وإمّا لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب ، وعِلم المُحب أنه قد وقع بيده ورآه ، للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية . وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يَعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يَضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى مايقول . ويحسن الوصف ، ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة . ويجيد النظر . ويدقق فى الحقائق ، لايَدع المُراسلة وهو ممكن الوصل ، قريب الدار ، أتىّ المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة . ولقد أخبرتُ عن بعض السُّقّاط الوُضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قبيح . وضَرْب من الشَّبق فاحش .

وأمّا سَوْءُ الحبْر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ، ويُقارضه محبوبه بسوء الحبر بالرِّيق .

وفى ذلك أقول :

جوابٌ أتانى عن كتابٍ بعثتُهُ ... فسكّن مُهتاجاً وهيَّجَ ساكنا
سقيْتُ بدَمع العينِ لمَّا كتبْتُهُ ... فَعَالَ مُحبٌّ ليس فى الودِّ خائناً

فمازال ماءُ العين يمحو سُطـــورَهُ فيا ماءَ عَيْنِى قد محوْتَ المحاسنا
غدا بدمُوعى أولُ الخطِّ بيننـــا وأضحى بدَمعِى آخرُ الخطِّ بائنا

« خبر :

ولقد رأيتُ كتاب المحب إلى محبوبه ، وقدقطع فى يده بسكين له ، فسال الدم ، واستمدّ منه ، وكتب به الكتاب أجمعَ ، ولقدرأيت الكتاب بعدجُفوفه فما شككتُ أنه بصبْغ اللك[1] .

(١) صاغ ابن قزمان هذه الفكرة زجلا ، ونلتقى بها عنده فى آخر دور من الزجل رقم ١١٢ من ديوانه :
وكن لرسولى قريب الحجاب ،
وإن كان وترضى وترسل كتاب ،
بدمى سطر إليك الجواب ،
وترى عظمى مكان القلم .

١١

باب السفير

ويقع فى الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة ، وتمام الاستئناس ، إدخال السفير ، ويجب تخيُّره وارتياده ، واستجادته واستفراهه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد الله تعالى .

فينبغى أن يكون الرسول ذاهيئة ، حاذقاً يكتفى بالاشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويُحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما أغفله باعثه ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للأسرار حافظا ، وللعهد وفيا ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدَّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولُكَ سيفٌ فى يمينكَ فاستجدْ حُساماً ولا تضربْ به قبل صقْلِه
فمن يكُ ذا سيفٍ كهَامٍ فَضُرُّه يعـــودُ على المعْنىِّ منْـــــه بجهله

وأكثر ما يستعمل المحبُّون فى إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملا لا يُؤبه له ، ولا يُهتدى للتحفظ منه ، لصباه أولهيئة رثة أو بذاذة فى طلعته .

وإما جليلا لا تلحقه الظِّنن لنسك يظهره ، أولسن عالية قد بلغها . وما أكثر هذا فى النساء ، ولاسيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين . وإنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجّامة ، والسراقة والدلاّلة ، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة . والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الأوصاف ، وعسير يسُر ، وبعيد قرُب ، وجموح أنس ، وكم داهية دهت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها ، وقلة الثقة بكل واحد ، والسعيد

من وعظ بغيره . وبالضد تتميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ولا أزال عن الجميع ظل العافية[١] .

• خبر :

وإنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ، ويُعقد الكتاب فى جناحها ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

تحيَّرهـــا نوحٌ فما خابَ ظَنُّـــهُ ... لديْهَـــا وجاءتْ نحوهُ بالبشائرِ
سأودِعهـــا كُتْبى إليكِ فهاكهَا ... رَسائلَ تُهدَى فى قوادِمِ طائـرِ

---

(١) ترك هذا الباب أثراً واضحاً فى الأدب الإسبانى ، فرواية لا ثليستينا La Celistina ، أو القوّادة ، لمؤلفها فرناندو دى روخاس Fernando de Rojas (١٤٥٣ - ١٥٤١ م) بطلتها عجوز مهمتها التوفيق بين الرءوس فى الحرام ، وقد أفاد مؤلفها ، أو مؤلفوها ، من هذا الفصل مباشرة ، أو عن طريق مؤلفات إسبانية أخرى أفادت من ابن حزم . وسنعرض لهذه القضية فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .